

تفسير ابن كثير

إِذْ يُغَشِّيكُمُ الذُّعَاسَ آمِنَةً مِّنْهُ وَيَنْزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُفُوبَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ
عَنكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ

يذكرهم الله بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم ، أمانا من خوفهم الذي حصل لهم
من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد ، كما قال تعالى : (
ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) [آل
عمران : 154] . قال أبو طلحة كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد ، ولقد سقط السيف من
يدي مرارا ، يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه ، ولقد نظرت إليهم يميّدون وهم تحت الحجب
وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا زهير ، حدثنا ابن مهدي ، عن شعبة ، عن أبي إسحاق ،
عن حارثة بن مضرب ، عن علي - رضي الله عنه - قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير
المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلي تحت
شجرة ويبيكي حتى أصبح . وقال سفيان الثوري ، عن عاصم عن أبي رزين ، عن عبد الله
بن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال : النعاس في القتال أمانة من الله ، وفي الصلاة من

الشیطان .وقال قتادة : النعاس فی الرأس ، والنوم فی القلب . .قلت : أما النعاس فقد أصابهم یوم أحد ، وأمر ذلك مشهور جدا ، وأما یوم بدر فی هذه الآیة الشریفة إنما هی فی سیاق قصة بدر ، وهی دالة علی وقوع ذلك أيضا وكأن ذلك كان سببیا للمؤمنین عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله . وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمه علیهم ، وكما قال تعالی : (فإن مع العسر یسرا إن مع العسر یسرا) [الشرح : 5 ، 6] ؛ ولهذا [جاء] فی الصحیح أن رسول الله - صلی الله علیه وسلم - لما كان یوم بدر فی العرش مع الصدیق - رضی الله عنه - وهما یدعوان ، أخذت رسول الله سنة من النوم ، ثم استیقظ متبسما فقال : أبشریا أبا بكر ، هذا جبریل علی ثنایاه النقع ، ثم خرج من باب العرش ، وهو یتلو قوله تعالی : (سیهزم الجمع ویولون الدبر) [القمر : 45] .وقوله : (ینزل علیکم من السماء ماء) قال علی بن أبی طلحة ، عن ابن عباس قال : نزل النبی - صلی الله علیه وسلم - یعنی : حین سار إلى بدر - والمسلمون بینهم وین الماء رملة دعصة وأصاب المسلمین ضعف شدید ، وألقى الشیطان فی قلوبهم الغیظ ، یوسوس بینهم : تزعمون أنکم أولیاء الله تعالی وفیکم رسوله ، وقد غلبکم المشركون علی الماء ، وأنتم

تصلون مجنبيين ! فأمر الله عليهم مطرا شديدا ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وانشف الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم وأمد الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل في خمسمائة مجنبة ، وميكائيل في خمسمائة مجنبة . وكذا قال العوفي عن ابن عباس : إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها ، نزلوا على الماء يوم بدر ، فغلبوا المؤمنين عليه . فأصاب المؤمنين الظمأ ، فجعلوا يصلون مجنبيين محدثين ، حتى تعاضموا ذلك في صدورهم ، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي ، فشرب المؤمنون ، وملئوا الأسقية ، وسقوا الركاب واغتسلوا من الجنابة ، فجعل الله في ذلك طهورا ، وثبت الأقدام . وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة ، فبعث الله المطر عليها ، فضربها حتى اشتدت ، وثبتت عليها الأقدام . ونحو ذلك روي عن قتادة ، والضحاك ، والسدي . وقد روي عن سعيد بن المسيب ، والشعبي ، والزهري ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أنه طش أصابهم يوم بدر . والمعروف أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما سار إلى بدر ، نزل على أدنى ماء هناك أي : أول ماء وجدته ، فتقدم إليه

الحياب بن المنذر فقال : يا رسول الله ، هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلكه الله فليس لنا أن نجاوزة ، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة ؟ فقال : بل منزل نزلته للحرب والمكيدة .

فقال : يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل ، ولكن سر بنا حتى نزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القلب ، ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء . فسار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ففعل كذلك . وفي مغازي الأموي أن الحياب لما قال ذلك نزل ملك من السماء وجبريل جالس عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال ذلك الملك : يا محمد ، إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن الرأي ما أشار به الحياب بن المنذر فالتفت رسول الله [صلى الله عليه وسلم] إلى جبريل ، عليه السلام ، فقال : هل تعرف هذا ؟ فنظر إليه فقال : ما كل الملائكة أعرفهم ، وإنه ملك وليس بشيطان . وأحسن ما في هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب " المغازي " -

رحمه الله - : حدثني يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير قال : بعث الله السماء - وكان الوادي دهسا - فأصاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير ، وأصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه . وقال مجاهد :

أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس ، فأطفأ بالمطر الغبار ، وتلبدت به الأرض ، وطابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم . وقال ابن جرير : حدثنا هارون بن إسحاق ، حدثنا مصعب بن المقدم ، حدثنا إسرائيل ، حدثنا أبو إسحاق ، عن حارثة ، عن علي - رضي الله عنه - قال : أصابنا من الليل طش من المطر - يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر - فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر . وبات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعو ربه : اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض ، فلما أن طلع الفجر ، نادى : الصلاة عباد الله ، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف ، فصلى بنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحرّض على القتال . وقوله : (ليطهركم به) أي : من حدث أصغر أو أكبر ، وهو تطهير الظاهر (ويذهب عنكم رجز الشيطان) أي : من وسوسة أو خاطر سيئ ، وهو تطهير الباطن ، كما قال تعالى في حق أهل الجنة : (عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة) فهذا زينة الظاهر (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) [الإنسان : 21] أي : مطهرا لما كان من غل أو حسد أو تباغض ، وهو زينة الباطن وطهارته . (وليربط على قلوبكم) أي : بالصبر والإقدام على مجادلة الأعداء ،

وهو شجاعة الباطن ، (ويثبت به الأقدام) وهو شجاعة الظاهر ، والله أعلم .